عَلَمُ الدين السخاويُّ ومَوْقِفُهُ من الإعجازِ العلميِّ: عرضٌ ومناقشة

د. غانم قدوري الحمد

مقدمة:

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلام على سيدنا محمد رسول الله، وبعد:

فإنَّ موضوع إعجاز القرآن الكريم كان قد حظي بعناية الدارسين منذ بدء تدوين العلوم الإسلامية، وهو في كثير من مباحثه يرتبط بالقرآن الكريم، والسُّنَّة النبوية، وتاريخ الدعوة الإسلامية، فإذا كان المشركون قد وَصَفُوا القرآن بأنه شعر، أو سحر، أو بأنه أساطير الأولين فإنَّ القرآن قد تحدَّاهم أن يأتوا بمثله أو بعشر سور أو بسورة، ثم قال: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤]، ثم أعلن القرآن الحقيقة الأبدية لعجز الجن والإنس عن الإتيان بمثله، فقال الله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

وَبَحثَ العلماء عن وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، وكان أول ما لفت نظرهم بلاغة أسلوبه وروعة نظمه، ثم أطالوا النظر في معانيه، فتكشف لهم ما في معانيه من الحكمة والدقة في التعبير عن حقائق التاريخ، وذكر الْمُغَيَّبَات، وبيان الشرائع، والإشارة إلى أسرار الخلق في الكون والحياة، وإذا كان إدراك سمو التعبير في القرآن قد ضعف في القرون المتأخرة لدى الكثيرين، بسبب ضعف ملكة اللغة، فإن إدراك ما في القرآن من معانٍ وحكم وإشارات إلى أسرار الخلق لا يحول دون إدراكه وفهمه ضعف اللغةً العربية أو الجهل بها، ومن ثم نشطت مباحث الإعجاز المتعلقة بمعاني القرآن في زماننا على نحو قد يفوق المباحث المتعلقة بالأسلوب أو النظم.

وانبثق عن ذلك ما يُعْرَفُ بالتفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن، ثم ظهر ما يعرف بالإعجاز العلمي الذي يُعنى بالوقوف على ما تضمنه القرآن الكريم من إشارات تعبر عن حقائق علمية لم تعرفها البشرية إلا بعد التقدم

العلمي الكبير في العصر الحديث، وهي من أوضح الأدلة على صدق النبي ودليل جديد على ربانية القرآن الكريم.

واختلف الدارسون في العصر الحديث في إدراج المباحث المتعلقة بالتفسير العلمي للقرآن، والأسرار العلمية التي أشار إليها، ضمن مباحث الإعجاز، ولَفَتَ نظري أنَّ أحد علماء السلف قد ذكر هذه المسألة قبل ثمانية قرون، وتساءل: هل في إقامة القرآن للبراهين وإيراد الدلائل على الوحدانية بذكر الآيات الكونية – إعجازٌ؟ ثم أجاب عن هذه المسألة وبيَّن رأيه فيها.

ذلكم هو عَلَمُ الدين السخاوي الدمشقي المتوفى سنة ٦٤٣هـ، صاحب المؤلفات الكثيرة الشهيرة في علوم القرآن والعربية، فقد خصص رسالة للبحث في إعجاز القرآن ضمن كتابه الكبير (جمال القراء وكمال الإقراء)، بَحَثَ فيها وجوه الإعجاز، وميَّز فيها بين ما وقع به التحدي في القرآن، وما هو دليل على صدق النبيِّ ووجدتُ أن نقل وجهة نظره ووضعها بين يدي المهتمين بالإعجاز العلمي مفيد من ناحيتين: الأولى: التأصيل لهذا النوع من المباحث، والثانية: الكشف عن عمق الفكر وسعته لدى علمائنا في بحثهم في علوم القرآن وتفسيره.

وسوف أعرض الموضوع من خلال المباحث الآتية:

المبحث الأول: تعريف موجز بالسخاوي وجهوده في علوم القرآن.

المبحث الثاني: وجوه الإعجاز عند السخاوي وموقفه من الإعجاز العلمي.

المبحث الثالث: ملامح فكرة السخاوي حول الإعجاز العلمي عند المحدثين.

والله تعالى ولي التوفيق.

المبحث الأول

تعريف بالسخاوي وجهوده في علوم القرآن الكريم

١. مصادر ترجمته

اشتهر علم الدين السخاوي في عصره، وقَصَدَهُ طلاب العلم وازدحموا عليه، وجَذَبَ انتباه المؤرخين في عصره فترجموا له في كتبهم، فقد ترجم له ياقوت الحموي

المتوفى سنة ٦٢٦هـ في معجم الأدباء، وقال في آخر الترجمة: ''وكتبتُ هذه الترجمة في سنة تسع عشرة وست مئة، وهو بدمشق كَهْلٌ، يحيا''[١]. وترجم له القفطي المتوفى سنة ٦٤٦هـ في كتابه (إنباه الرواة)، وقال: ''وهو مقيم على حالته من الإفادة في زماننا هذا، وهو سنة اثنتين وثلاثين وست مئة''[٢].

وممَّن رآه وترجم له ابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١هـ، فقال في كتابه وفيات الأعيان: ''ورأيته بدمشق والناس يزدحمون عليه في الجامع لأجل القراءة''[٣].

وذكر كثيراً من أخباره تلميذه الدمشقي الشهير أبو شامة المقدسي المتوفى سنة ٦٦٥هـ[٤].

وترجم له تلميذ تلامذته الذهبي في كثير من مؤلفاته، فترجم له في معرفة القراء الكبار[٥]، وسير أعلام النبلاء[٦]، وتاريخ الإسلام[٧]، وتراجم الذهبي له تعطي وحدها صورة واضحة عن حياة علم الدين السخاوي، وهناك مصادر أخرى ترجمت له، تكمل ما ورد في المصادر التي ذكرتها[٨].

٢. أبرز معالم حياته

وُلِدَ عَلَمُ الدين علي بن محمد بن عبد الصَّمد، أبو الحسن، الهَمْدَانيُّ[٩]،

---

١ معجم الأدباء ٣٢١/٤.

٢ إنباه الرواة ٣١٢/٢.

٣ وفيات الأعيان ٣٤٠/٣.

٤ ينظر: كتاب الروضتين ٢١٨/٣ و ٣٦٨ و ٣٧٥، و الذيل على الروضتين ص١٧٧، وإبراز المعاني ص٨.

٥ معرفة القراء ١٢٤٥/٣-١٢٥١.

٦ سير أعلام النبلاء ١٢٢/٢٣-١٢٤.

٧ تاريخ الإسلام ١٩٢/٤٧-١٩٦.

٨ منها: الصفدي: الوافي بالوفيات ٤٣/٢٢-٤٥، والسبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٢٩٧/٨-٢٩٨، وابن الجزري: غاية النهاية ٥٦٨/١-٥٧١، والسيوطي: بغية الوعاة ١٩٢/٢-١٩٤، والداودي: طبقات المفسرين ٤٢٥/١-٤٢٨.

وَكَتَبَ عدد من الباحثين المعاصرين ترجمات مطوَّلة له في صدر ما حققوه من كتب السخاوي، منهم الدكتور صالح مهدي عباس في صدر تحقيقه لكتاب (الوسيلة إلى كشف العقلية ١٩٨٧م) ، والدكتور مولاي محمد الإدريسي الطاهري في صدر تحقيقه الكتاب ذاته (١٩٩١م).

٩ الهَمْدَاني: بالدال نسبة إلى هَمْدان، إحدى قبائل اليمن (ينظر: ابن الأثير: اللباب ٣٩١/٣).

السَّخاويُّ[١]، المصريُّ، نزيل دمشق، في بلدة سَخَا، من إقليم المحلة[٢]، سنة ثمان أو تسع وخمسين وخمس مئة[٣]، وقال ابن خلكان: ''ثم ظفرت بتاريخ مولده في سنة ثمان وخمسين وخمس مئة، بسَخَا، والله أعلم''[٤].

نشأ علم الدين في بلدته سَخَا، ثم خرج لطلب العلم في مدن مصر الكبرى، قال الذهبي: ''وقَدِمَ الثغر [يعني الإسكندرية] في سنة اثنين وسبعين، وسَمِعَ من أبي طاهر السِّلَفي''[٥]، وعمره حينئذ أربع عشرة سنة تقريباً، ولعله اتجه إلى مصر (القاهرة) قبل وفاة شيخه السلفي سنة ٥٧٦هـ[٦].

وتَحَوَّل علم الدين إلى القاهرة وقرأ على شيوخها وسمع منهم، و ''كان مبدؤه الاشتغالَ بالفقه على مذهب مالك بمصر، ثم انتقل إلى مذهب الشافعي، وسكن بمسجد القَرَافة يَؤُمُّ فيه مدَّة طويلة، فلمَّا وصل الشيخ أبو القاسم الشاطبي إلى تلك الديار واشتهر أمره لازمه مدة، وقرأ عليه القرآن بالروايات، وتَلَقَّنَ منه قصيدته المشهورة في القراءات ''[٧]، وهو الذي ''شَهَرَها بين الناس وشَرَحَها، وَبيَّنَ معانيَها و أوضحها، ونَبَّهَ على قدر ناظمها''[٨].

وانتقل علم الدين إلى دمشق، وذكر ياقوت سبب انتقاله فقال: ''وكان يُعَلِّمُ أولاد الأمير ابن مُوسَكَ[٩]، وانتقل معه إلى دمشق، واشتهر بها بعلم القرآن''[١٠]، ''وكان أول ما قدم دمشق يذمها في مكاتباته إلى مصر نظماً ونثراً، حُبّاً للوطن، ثم

---

١ قال ابن خلكان (وفيات الأعيان ٣٤١/٣): ''والسَّخَاوي: بفتح السين المهملة والخاء المعجمة، وبعدها ألف، هذه النسبة إلى سَخَا، وهي بليدة بالغربية، من أعمال مصر، وقياسه: سَخَوِيٌّ، لكن الناس أطبقوا على النسبة الأولى ''، وقال القفطي في إنباه الرواة (٣١١/٢): '' من أهل سَخَا، إحدى قرى الناحية الشمالية من مصر ''.

٢ البغدادي: خزانة الأدب ٧٤/٦، وقال محقق فتح الوصيد (٧/١): '' من مدن محافظة كفر الشيخ ''.

٣ الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٢٢/٢٣، ومعرفة القراء ١٢٤٥/٣.

٤ وفيات الأعيان ٣٤١/٣.

٥ سير أعلام النبلاء ١٢٢/٢٣.

٦ السيوطي: طبقات الحفاظ ص٤٦٨.

٧ ياقوت: معجم الأدباء ٣٢١/٤، وابن خلكان: وفيات الأعيان ٣٤٠/٣.

٨ أبو شامة: إبراز المعاني ص٨.

٩ ابن مُوسَكَ: عماد الدين داود بن مُوسَكَ بن جكو الهذباني، كان من خيار الأمراء والأجواد، مات سنة ٦٤٤هـ، وكان أبوه الأمير موسك ابن خال السلطان الناصر صلاح الدين ومن المقدمين عنده، وتوفي بدمشق سنة ٥٨٥هـ (ينظر: أبو شامة: كتاب الروضتين ١٠٨/٤، والذهبي: تاريخ الإسلام ٢٣٩/٤٩، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١١٠/٦).

١٠ معجم الأدباء ٣٢١/٤.

استقرَّ فيها وفَضَّلَها في بعض مكاتباته"[1].

ولم يذكر المؤرخون السنة التي انتقل فيها علم الدين السخاوي إلى دمشق، ويمكن الاستنتاج أن انتقاله كان قبل سنة ٥٨٦هـ، فإنه وَفَدَ في هذه السنة على السلطان الناصر صلاح الدين، وهو مُعَسْكِرٌ خارج مدينة عكا، ومَدَحَهُ بقصيدة مطلعها:

بينَ الفؤادَيْنِ من حُبٍّ ومحبوبِ يظلُّ ذو الشوقِ في شدٍّ وتقريبِ[2]

ولعله خرج إليها من دمشق لقربها منها.

ومما يدل على انتقاله المبكر إلى دمشق أنه "عاود قراءة القرآنِ على تاج الدين أبي اليمن الكندي، ولازمه، وقرأ عليه جملة وافرة من سماعاته في الأدب وغيره"[3].

والكندي هو زيد بن الحسن بن زيد، البغدادي، المقرئ النحوي اللغوي الأديب الحنفي، نزيل دمشق، ولد في بغداد سنة ٥٢٠هـ، وتوفي بدمشق سنة ٦١٣هـ، وكان علم الدين يُجِلُّهُ كثيراً حتى قَرَنَهُ بسيبويه في علم العربية، فقال يمدحه[4]:

لم يَكُنْ في عَصْرِ (عَمْرٍو) مِثْلُهُ وكذا الكنديُّ في آخر عَصْرِ
فَهُمَا زيدٌ وعَمْرٌو إنَّما بُنِيَ النحوُ على زيدٍ وعَمْرِو

ولما استقر به المقام بدمشق اشتغل بالتأليف والتدريس، فكانت له حلقة بجامع دمشق، وكانت حلقته عند المكان المسمى بقبر يحيى بن زكريا، وكان في الوقت نفسه شيخ الإقراء بالتربة الصالحية، وكان منزله هناك[5]، وأقرأ الناس نيفاً وأربعين سنة[6].

١ كتاب الروضتين ٢١٨/٣.

٢ ينظر: الذهبي: تاريخ الإسلام ١٩٥/٤٧، وسير أعلام النبلاء ١٢٤/٢٣، والسبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٢٩٨/٨.

٣ ياقوت الحموي: معجم الأدباء ٣٢١/٤.

٤ ينظر: الذهبي: معرفة القراء ١١٤٠/٣، وابن الجزري: غاية النهاية ٢٩٧/١، والسيوطي: بغية الوعاة ٥٧٠/١.

٥ ينظر: الذهبي: تاريخ الإسلام ١٩٦/٤٧، ومعرفة القراء ١٢٥٠/٣.

٦ ينظر: الذهبي: معرفة القراء ١٢٤٦/٣، والداودي: طبقات المفسرين ٤٢٧/١.

وليس لدينا معلومات كثيرة عن حياة الشيخ في دمشق وأسرته فلم أقف على ما يشير إلى أن له ابناً يُسَمَّى الحسن، لكن أبا شامة ذكر له ابناً اسمه محمد توفي سنة ٦٢٣هـ[١]، وذكر أن زوج ابنته جمال الدين أحمد بن عبد الله بن شعيب الكتبي توفي سنة ٦٦٣هـ، وقال: ''وكان تزوج ابنته فولدت له وماتت هي وولدها قديماً''[٢]، وقال الصفدي: ''ولم يتزوج بعدها''[٣].

وكان أشهر تلامذته في دمشق أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي ثم الدمشقي، المتوفى سنة ٦٦٥هـ[٤]، الذي قال عن شيخه علم الدين: ''وصَحِبْتُهُ من شعبان سنة أربع عشرة وست مئة، ومات وهو عني راضٍ''[٥].

وكان محمد بن عبد العزيز الدمياطي الدمشقي قد قرأ القراءات على علم الدين السخاوي في آخر عمره، واختص بخدمته، وكان مولده في حدود سنة ٦٢٠هـ، ووفاته سنة ٦٩٣هـ[٦].

وكان آخر من قرأ على الشيخ علم الدين إسماعيل بن يوسف بن نجم بن مكتوم، صدر الدين أبو الفداء الدمشقي، المولود سنة ٦٢٣هـ، تلا على الشيخ علم الدين السخاوي بحرف أبي عمرو وابن كثير وعاصم، وهو آخر من قرأ على السخاوي، وتوفي سنة ٧١٠هـ[٧].

وبعد حياة حافلة بالتعليم والتأليف نافت على تسعين سنة توفي الشيخ علم الدين السخاوي، قال تلميذه أبو شامة المقدسي: ''وفي ثاني عشر جمادى الآخرة [سنة ثلاث وأربعين وست مئة] توفي شيخنا علم الدين علاَّمةُ زمانه، وشيخُ أَوَانه، بمنزله بالتربة الصالحية، ودُفِنَ بقاسيون، وكانت على جنازته هيبة وجَلالة وإخباتَ''[٨].

وبعد وفاة الشيخ علم الدين السخاوي اخْتُلِفَ في مَن يتولى مشيخة الإقراء بعده في تربة أم الصالح، هل يتولاها محمد بن علي بن موسى أبو الفتح شمس

---

١ الذيل على الروضتين ص١٤٨.
٢ الذيل على الروضتين ص٢٣٥.
٣ الوافي بالوفيات ٨٣/٧.
٤ ينظر: الذهبي: معرفة القراء ١٣٣٤/٣، وابن الجزري: غاية النهاية ٣٦٥/١.
٥ الذهبي: تاريخ الإسلام ١٩٦/٤٧.
٦ ينظر: الذهبي: معرفة القراء ١٤٠٧/٣.
٧ ينظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ١٤٦/٩.
٨ ينظر: الذهبي: تاريخ الإسلام ١٩٦/٢٧، ومعرفة القراء ١٢٥٠/٣، وينظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣٤١/٣.

الدين الأنصاري، أحد تلامذة الشيخ علم الدين، أو يتولاها أشهر تلامذته أبو شامة المقدسي، لأن شرط هذه الوظيفة أن يكون أقرأ مَن في البلد، فتكلموا في مَن يَحْكُمُ بينهم، فأرشدوا إلى علم الدين القاسم بن أحمد الأندلسي، فسأل كل واحد من الرجلين مسألة من الفن، وأجابه، فقالوا له: مَن رأيت يصلح؟ فقال عن أبي شامة: هذا إمام، وقال عن شمس الدين أبي الفتح: هذا رجل يعرف القراءات كما ينبغي، فوقع الاختيار عليه[1].

ولَمَّا توفي علم الدين السخاوي رثاه جمال الدين إبراهيم بن عطاء الشهبي بقصيدة مطلعها:

مَضَى السخاويُّ فٱنْبَتَتْ عُرَى الجَدَلِ وبُدِّلَت مُذ تَوَارَى صَنْعَةُ البَدَلِ

٣. مكانته وأقوال العلماء فيه

كانت لعلم الدين السخاوي مكانة كبيرة في دمشق، لتصدره في الإقراء والإفتاء واشتغاله بالتأليف، وقد عَرَفَ العلماء منزلته في عصره وبعد عصره، وأحسب أن نقل ما قاله الذهبي (ت ٧٤٨هـ) في حَقِّه يكفي لبيان منزلته، وقد تفنن في اختيار الكلمات المعبرة عن ذلك في الترجمات التي كتبها له في عدد من كتبه، وقد تبدو بعض العبارات مكررة، لكنها توحي في مواضعها بمعانٍ جديدة.

قال الذهبي في كتابه معرفة القراء: "الإمام العلامة شيخ القراء، علم الدين أبو الحسن الْهَمْدَانِيُّ السخاوي، المقرئ، المفسر، النحوي، كان إماماً كاملاً، ومقرئاً محققاً، ونحوياً علاَّمة، مع بصره بمذهب الشافعي، ومعرفته بالأصول وإتقانه للُّغة، وبراعته في التفسير، وإحكامه لضروب الأدب، وفصاحته بالشعر، وطول باعه في الإنشاء، مع الدين والتواضع والمروءة وٱطِّرَاح التكلف، وحسن الأخلاق، ووُفُورِ الْحُرْمَةِ، وظهور الجلالة، وكثرة التصانيف"[2].

وقال في كتابه سير أعلام النبلاء: "الشيخ الإمام العلامة، شيخ القراء والأدباء، علم الدين أبو الحسن... وكان إماماً في العربية، بصيراً باللغة، فقيهاً مفتياً، عالماً بالقراءات وعللها، مجوِّداً لها، بارعاً في التفسير، صَنَّفَ، وأقرأ، وأفاد، ورَوَى الكثير، وبَعُدَ صيته، وتكاثر عليه القراء... وكان مع سعة علومه وفضائله حَسَنَ

---

[1] ينظر: الذهبي: تاريخ الإسلام ٣٢٥/٤٨، ومعرفة القراء ١٣٣١/٣.

[2] معرفة القراء ١٢٤٥/٣ – ١٢٤٧.

الأخلاق، مُحَبَّباً إلى الناس، وافر الحرمة، مُطَّرِحاً للتكلف، ليس له شغل إلا العلم ونشره"[1].

وجمع الذهبي هذه المعاني وأضاف إليها في ترجمته في كتابه تاريخ الإسلام، فقال: وكان: إماماً علامة، مقرئاً محققاً، مجوِّداً، بصيراً بالقراءات وعللها، ماهراً بها، إماماً في النحو واللغة، إماماً في التفسير، كان يتحقق بهذه العلوم الثلاثة ويُحكمها، وكان يفتي على مذهب الشافعي.

تصدَّر للإقراء بجامع دمشق، وازدحم عليه الطلبة وقصدوه من البلاد، وتنافسوا في الأخذ عنه[2].

وكان دَيِّناً، خَيِّراً، متواضعاً، مُطَّرحاً للتكلف، حُلْوَ المحاضرة، مطبوعَ النادرة، حادَّ القريحة، من أذكياء بني آدم، وكان وافرَ الحُرْمَة، كبيرَ القَدْر مُحَبَّباً إلى الناس.

رَوَى الكثير من العوالي والنوازل، وكان ليس له شُغْلٌ إلا العلم والإفادة، قرأ عليه خَلْقٌ كثير إلى الغاية[3]، ولا أعلم أحداً من القراء في الدنيا أكثر أصحاباً منه[4]. رحمه الله.

٤. مؤلفاته في علوم القرآن:

كَثُرَتْ مؤلفات علم الدين السخاوي في العلوم الثلاثة: القراءات، والتفسير، والعربية، وغيرها من العلوم، وذكر الذين ترجموا له كثيراً من تلك المؤلفات، وتتبعها الذين حققوا بعض كتبه فأحصوها، وذكروا ما طبع منها، وما هو مخطوط، أو مفقود.

---

١ سير أعلام النبلاء ١٢٢/٢٣ – ١٢٣.

٢ قال ابن خلكان (وفيات الأعيان ٣٤٠/٣): "ورأيته بدمشق والناس يزدحمون عليه في الجامع لأجل القراءة، ولا تصح لواحد منهم نوبة إلا بعد زمان، ورأيته مراراً يركب بهيمة وهو يصعد إلى جبل الصالحيين وحوله اثنان وثلاثة، وكل واحد يقرأ ميعاده في موضع غير الآخر، والكل في دفعة واحدة، وهو يرد على الجميع".

وقال الذهبي: في تاريخ الإسلام (١٩٥/٤٧): " وفي نفسي شيء من صحة الرواية على هذا النعت، لأنه لا يتصور أن يسمع مجموعات الكلمات، فما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، وأيضاً فإن مثل هذا الفعل خلاف السنة، ولا أعلم أحداً من شيوخ المقرئين كان يترخص في هذا إلا الشيخ علم الدين" (وينظر: معرفة القراء ١٢٤٧/٣-١٢٤٨، وابن الجزري: غاية النهاية ٥٧٠/١).

٣ أحصى له صالح مهدي عباس واحداً وثمانين من تلامذته (ينظر: الوسيلة إلى كشف العقيلة ص٢٠-٢٥).

٤ تاريخ الإسلام ١٩٣/٢٧-١٩٤، وينظر: ابن الجزري: غاية النهاية ٥٦٩/١.

وكان إسماعيل باشا البغدادي قد جمع أطول قائمة من مؤلفات علم الدين السخاوي، فذكر أربعة وثلاثين كتاباً[١].

وجمع الدكتور صالح مهدي عباس في الدراسة التي كتبها بين يدي تحقيقه كتاب (الوسيلة إلى كشف العقلية) أربعين عنواناً من مؤلفات علم الدين السخاوي[٢].

وجمع الدكتور مولاي محمد الإدريسي الطاهري في الدراسة التي كتبها بين يدي تحقيقه للكتاب نفسه خمسين عنواناً من مؤلفاته[٣].

وتضم قائمة مؤلفات علم الدين السخاوي كتباً في علوم القرآن، والفقه، والعربية وآدابها، والأحاجي والألغاز، وما يعنينا الوقوف عنده هنا هو مؤلفاته في علوم القرآن، وفي مقدمتها:

أ. جمال القراء وكمال الإقراء. وجعله في عشرة أبواب أو كتب، هي:
الأول: نثر الدرر في ذكر الآيات والسور. الثاني: الإفصاح الْمُوجِز في إيضاح الْمُعْجز. الثالث: منازل الإجلال والتعظيم في فضائل القرآن العظيم. الرابع: تجزئة القرآن. الخامس: أقوى العُدَد في معرفة العَدَد. السادس: ذكر الشواذ [من القراءات]. السابع: الطَّوْد الراسخ في المنسوخ والناسخ. الثامن: مراتب الأصول وغرائب الفصول (في القراءات). التاسع: منهاج التوفيق إلى معرفة التجويد والتحقيق. العاشر: عَلَمُ الاهتداء في معرفة الوقف والابتداء.

ويعد كتاب (جمال القراء) من أوائل الكتب الجامعة المؤلفة في علوم القرآن، ومن الجدير بالذكر أن هذه العناوين العشرة ذُكِرَتْ في قائمة مؤلفاته على أنها كتب مستقلة إلى جانب ذكر أصلها الذي وردت فيه (جمال القراء).

ب. فتح الوصيد في شرح القصيد، وهو شرح لقصيدة شيخه الشاطبي في القراءات، وقال ابن الجزري: "هو أول من شرحها بل هو – والله أعلم – سبب شهرتها في الآفاق"[٤]. وطبع عدة طبعات[٥].

---

١ هدية العرفين ١/٧٠٨.
٢ الوسيلة ص٣١-٣٧.
٣ الوسية ص٢٣-٥٠.
٤ غاية النهاية ١/٥٧٠.
٥ حققه الدكتور مولاي محمد الإدريسي الطاهري، وطُبِعَ في أربعة مجلدات بمكتبة الرشد ١٤٢٦هـ=٢٠٠٥م،

ج. الوسيلة إلى كشف العقيلة، وهو شرح لقصيدة الشاطبي في الرسم، وهو أول شرح لها، كما كان فتح الوصيد أول شرح لقصيدة الشاطبي (حرز الأماني) وقد حقق وطبع[١].

د. تفسير القرآن الكريم. قال ابن الجزري: ''وكتاب التفسير، وصل فيه إلى الكهف في أربعة أسفار، مَن وقف عليه علم مقدار هذا الرجل، ففيه من النكت والدقائق واللطائف ما لم يكن في غيره''[٢].

هـ. هداية المرتاب، وغاية الحفاظ والطلاب في تبيين متشابه الكتاب. منظومة في ٤٣١بيتاً، في ذكر الآيات المتشابهات في اللفظ، وهي مطبوعة[٣].

و. عمدة المجيد وعدة المجيد في معرفة لفظ التجويد. وهي منظومة في أربعة وستين بيتاً[٤]، وذكرها السخاوي في جمال القراء في آخر كتاب (منهاج التوفيق إلى معرفة التجويد والتحقيق)[٥]، وشرحها الحسن بن قاسم المرادي في كتابه (المفيد في شرح عمدة المجيد)[٦].

وحققه الدكتور أحمد عدنان الزعبي، وطبع في مجلدين بمكتبة دار البيان بالكويت ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م، ولم أطلع على هاتين الطبعتين، لكني اطلعت على طبعة ثالثة بتحقيق جمال الدين محمد شرف، طبع دار الصحابة للتراث بطنطا ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م.

١ حقَّقه صالح مهدي عباس في رسالة ماجستير في الجامعة المستنصرية سنة ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م، وحققه الدكتور مولاي محمد الإدريسي الطاهري، وطبع بمكتبة الرشد، الرياض ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م.

٢ غاية النهاية ٥٧٠/١، وذكر الدكتور مولاي محمد الإدريسي (الوسيلة ص٢٥) أنه '' توجد نسخة من تفسير تام منسوب لعلم الدين السخاوي، في جزأين، بالخزانة التيمورية، برقم (١٥٩) ، وأغلب الظن أن يكون غير الذي وصفه ابن الجزري''.

فهل يعني ذلك أن لعلم الدين السخاوي تفسيران؟ وقد يؤيد ذلك ما قاله أبو شامة المقدسي في كتاب الروضتين (٣٩٥/٣) في قصة حول التَّنَبُّؤ بتاريخ فتح بيت المقدس: '' وقد تكلم عليه شيخنا أبو الحسن علي بن محمد في تفسيره الأول''.

٣ تحقيق عبد القادر الخطيب الحسني، دار الغوثاني ودار الفكر، دمشق ١٤٢٧هـ = ٢٠٠٦م.

٤ ينظر: حاجي خليفة: كشف الظنون ١١٧١/٢، والبغدادي: هدية العارفين ٧٠٨/١.

٥ جمال القراء ٥٤٤/٢-٥٤٦.

٦ تحقيق د. علي حسين البواب، كتبة المنار، الزرقاء ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.

المبحث الثاني

وجوه الإعجاز عند السخاوي، وموقفه من الإعجاز العلمي

بَحَثَ علم الدين السخاوي موضوع إعجاز القرآن في كتابه (جمال القراء وكمال الإقراء)، وخصَّص له الكتاب الثاني منه، وعَنْوَنَهُ بقوله: (الإفصاح الْمُوجز في إيضاح الْمُعْجز)، ولَخَّصَ فيه وجوه الإعجاز التي ذكرها مَن تقدَّمه من العلماء الذين تناولوا الموضوع، لكنه تناولها بطريقة جديدة، ومَيَّزَ بين ما هو دليل على الإعجاز، وما هو دليل على صدق النبي وهذه نظرة جديدة لم يسبقه إليها أحد في ما اطلعت عليه من المصادر.

ويمكن تقسيم الأفكار التي تناولها السخاوي في الكتاب الذي لم يتجاوز سبع صفحات[1] إلى أربعة موضوعات، هي:

١. ثبوت مسألة الإعجاز.

٢. الدلالة التاريخية على عجز العرب عن معارضة القرآن.

٣. بيان الوجه في إعجاز القرآن.

٤. الدليل على صدق النبي.

وسوف أحاول بيان وجهة نظر علم الدين السخاوي في هذه الموضوعات، وأوازنها بما ورد في المصادر التي تقدمته في موضوع الإعجاز.

أولاً: ثبوت مسألة الإعجاز

لم يختلف العلماء في ثبوت إعجاز القرآن الكريم، وعَبَّرَ كل من تناول هذه المسألة بما يدل على ذلك، وجعل علم الدين ذلك مفتتحاً للكتاب حيث قال: ''لا ريب في عجز البلغاء وقصور الفصحاء عن معارضة القرآن العظيم، وعن الإتيان بسورة من مثله في حديث الزمان وقديمه، وذلك ظاهر مكشوف، ومتيقن معروف''[2].

وعَبَّرَ الخطابي (ت ٣٨٨هـ) عن ذلك قبل علم الدين السخاوي بقوله: ''والأمر في ذلك أبين من أن نحتاج إلى أن ندل عليه بأكثر من الوجود القائم المستمر على

---

١ جمال القراء ١/٤٣-٤٩.

٢ جمال القراء ١/٤٣.

وجه الدهر، من لدن عصر الصحابة إلى الزمان الراهن الذي نحن فيه"[1].

وقال القاضي الباقلاني (ت: ٤٠٣هـ) في فصل عنوانه (إن نبوة النبي معجزتها القرآن): "الذي يوجب الاهتمام التامَّ بمعرفة إعجاز القرآن أن نبوة نبينا بُنِيَتْ على هذه المعجزة، وإن كان قد أُيِّدَ بعد ذلك بمعجزات كثيرة، إلا أن تلك المعجزات قامت في أوقات خاصة، وأحوال خاصة، وعلى أشخاص خاصة... فأما دلالة القرآن فهي معجزة عامة: عمَّت الثقلين، وبَقِيَتْ بقاءَ العَصْرَيْنِ، ولزومُ الحجة بها في أولِّ وَقْتِ وُرُودِها إلى يوم القيامة على حَدٍّ واحد"[2].

ومن ثَمَّ حَصَلَ اليقين الذي تسكن معه النفس، ويطمئن عنده القلب أن القرآن معجز[3]، أعجز الفصحاء وقت نزوله، وأعجز البلغاء في قديم الزمان وحديثه.

ثانياً: الدلالة التاريخية على عجز العرب عن معارضة القرآن:

ترك العرب الذين عاندوا دعوة القرآن معارضته مع توفر الدواعي وشدة الحاجة، والتحدِّي للكافة[4]، وبَيَّنَ السخاوي عجز العرب عن معارضة القرآن لا سيما القوم الذين تحدَّاهم رسول الله بقوله: "فإنهم كانوا ذوي حرص على تكذيبه والرد عليه، وحالهم معه معروفة في معاداته ومعاندته، وإظهار بغضه وأذاه، وقذفه بالجنون والشعر والسحر، فكيف يَتْرُكُ مَن هذه حاله معارضته وهو قادر عليها، ومماثلته وهو واصل إليها؟ هذا وهو ينادي عليهم بقوله: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

مع ما فيه من سَبِّهم وسبِّ آبائهم، ووصفهم بالجهل والعجز، وإيعادهم بالعذاب والنكال وسوء المنقلب، ورميهم بالكذب والافتراء وتقبيح الأفعال، وتهجين ما هم عليه من الأحكام الفاسدة، وإطالة القول في ذلك، وفي شرح أحوالهم واستقباح أعمالهم، وفي ما أعدَّ لهم من الهوان والنكال، في الدنيا والمآل. أليس هذا وشبْهُهُ مما يحملهم على المعارضة لو كانوا قادرين عليها، ومما يجذبهم إلى المناظرة لو وجدوا سبيلاً إليها... فلا ريب إذن في أنهم رَامُوا ذلك فما أطاقوه، وجاولوه فما

---

١ بيان إعجاز القرآن ص٢١.

٢ إعجاز القرآن ص١٠.

٣ الرسالة الشافية ص١٢٨.

٤ ينظر: الرماني: النكت في إعجاز القرآن ص٧٥ و ١٠٩.

استطاعوه "[1]، فتركوا المعارضة لعجزهم، وأقبلوا على المحاربة لجهلهم"[2].

وكان الخطابي (ت: ٣٨٨هـ) قد سبق إلى الإشارة إلى ذلك بقوله: "إن النبي قد تحدَّى العرب قاطبة بأن يأتوا بسورة من مثله، فعجزوا عنه وانقطعوا دونه، وقد بقي يطالبهم به مدة عشرين سنة، مُظْهِراً لهم النكير، زَارِياً على أديانهم، مُسَفِّهاً آراءهم وأحلامهم، حتى نابذوه وناصبوه الحرب فهلكت فيه النفوس، وأُرِيقَت المُهَجُ، وقُطِعَت الأرحامُ، وذهبت الأموال، ولو كان ذلك في وسعهم وتحت أقدارهم لم يتكلفوا هذه الأمور الخطيرة، ولم يركبوا تلك الفُواقِرَ الْمُبِيرَةَ، ولم يكونوا تركوا السَّهْلَ الدَّمِثَ من القول إلى الحَزْنِ الوَعْرِ من الفعل، هذا ما لا يفعله عاقل، ولا يختاره ذو لَب"[3].

وأكد الباقلاني هذه القضية في أول كتابه (إعجاز القرآن) حين قال: "والذي يدل على أنهم كانوا عاجزين عن الإتيان بمثل القرآن: أنه تحدَّاهم إليه حتى طال التحدِّي، وجعله دلالة على صدقه ونبوته، وضمَّن أحكامه استباحة دمائهم وأموالهم وسَبْيَ ذريتهم، فلو كانوا يقدرون على تكذيبه لفعلوا... فلما لم تحصل هناك معارضة منهم، عُلِمَ أنهم عاجزون عنها"[4]؛ فدلت بذلك أحوالهم وأقوالهم على عجزهم عن معارضة القرآن، الإتيان بمثله[5].

ثالثاً: بيان الوجه في إعجاز القرآن

لَخَّصَ علم الدين السخاوي إعجاز القرآن في وجه واحد، هو النظم العجيب الخارج عن أساليب كلام العرب، والرصف البديع المباين لقوانين بلاغتهم ونظامهم، فأيقنوا بالقصور عن معارضته واستشعروا العجز عن مقابلته[6].

وذهب أكثر العلماء الذين سبقوا السخاوي إلى عَدِّ هذا الوجه أهمَّ وجوه الإعجاز، فقال الخطابي (ت: ٣٨٨هـ): "واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف، مُضَمَّناً أصح المعاني"[7].

---

١ جمال القراء ١/٤٣-٤٤.

٢ ينظر: الخطابي: بيان إعجاز القرآن ص٣٥.

٣ بيان إعجاز القرآن ص٢١-٢٢.

٤ إعجاز القرآن ص٢٠.

٥ ينظر: عبد القاهر الجرجاني: الرسالة الشافية ص١١٨.

٦ جمال القراء ١/٤٤.

٧ بيان إعجاز القرآن ص٢٧.

وجعل الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) وجوه الإعجاز ثلاثة، أحدها: ''أنه بديع النظم، عجيب التأليف، مُتَنَاهٍ في البلاغة إلى الحد الذي يُعْلَمُ عجز الخلق عنه''[١].

وقال عبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١هـ): ''ومعلوم أن المعوَّل في دليل الإعجاز على النَّظْم''[٢]، وبيَّن في كتابه (دلائل الإعجاز) معنى النظم بقوله: ''ومعلوم أنْ ليس النَظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض''[٣]، وقال في موضع آخر: ''اعلم أنْ ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعملَ على قوانينه وأُصوله، وتَعْرِفَ مناهجه التي نُهِجَت فلا تزيغَ عنها، وتحفظَ الرسوم التي رُسِمَت لك فلا تُخِلَّ بشيء منها''[٤].

وبَيَّنَ علم الدين السخاوي معنى النظم، فقال: ''فإن قيل: ما معنى قولكم: النظم الغريب والوصف العجيب، هل ثَمَّ زائدٌ على تعليق الكلام بعضه ببعض، وذلك الاسم بالاسم، والفعل بالاسم، والحرف بهما، وهذا موجود في كلام العرب، فبأيِّ شيء مَايَزَ القرآنُ كلام العرب؟

قيل: ما كل ما يحيط به العِلْمُ تَؤَدِّيه الصِّفَةُ، ولكن أَلَسْتَ تُفَضِّلُ كلام البلغاء والخطباء على غيره، وترى أيضاً فلاناً أبلغَ من فلان وأخطب، وأشعر وأفصح، فبأيِّ شيء حصلتْ هذه التفرقة؟ فكذلك عَرَفَتِ العربُ، ومَن يعلم البلاغة من غيرهم، مباينةَ القرآن العزيز سائر الكلام، وذلك بصحة الذوق، وسلامة الطبع، ولطف الحِسِّ''[٥].

وأطلق المعاصرون على هذا الوجه في إعجاز القرآن اسم الإعجاز البياني، وعَدُّوه أعظم وجوه إعجاز القرآن[٦]، وموضوعه أسلوب القرآن، وهو يعتمد على البيان والبلاغة والفصاحة[٧].

رابعاً: الدليل على صدق النبي

نظر علم الدين السخاوي في ما قاله العلماء في وجوه إعجاز القرآن قبله، وعَدَّ

١ إعجاز القرآن ص٣٥.
٢ الرسالة الشافية ص١٣٣، وينظر: دلائل الإعجاز ص٣٩١.
٣ دلائل الإعجاز ص٤.
٤ المصدر نفسه ص٨١، وينظر: ص٣٧٠.
٥ جمال القراء ١/٤٥.
٦ ينظر: فضل حسن عباس: إعجاز القرآن الكريم ص١٦١.
٧ ينظر: صلاح الدين الخالدي: البيان في إعجاز القرآن ص١٣٦.

واحداً منها فقط وجهاً لإعجاز القرآن، الذي تحدَّثنا عنه في الفقرة السابقة، وجَعَلَ ما عداه دليلاً على صدق النبي وذكر أمرين من ذلك:

١. **الإخبار عن الْمُغَيَّبِ**، سواء كان من أخبار الماضين أو ما سبق، ويكون إلى يوم الدين.

قال السخاوي: ''وأما ما تضمنه القرآن من الإخبار عن الْمُغَيَّبِ فليس ذلك ممَّا تحداهم به، ولكنه دليل على صدق الرسول في كونه أُمِّياً لا معرفة له، ولا يُحْسنُ أن يقرأ، ولا وَقَفَ على شيء من أخبار الأمم السالفة، حتى إنه لا يقول الشعر، ولا ينظر في الكتب، ثم إنه قد أتى بأخبار القرون الماضية والأمم الخالية، وبما كان من أول خلقِ الأرض والسماء إلى انقضاء الدنيا، وهم يعلمون ذلك من حاله ولا يشكُون فيه، فهذه الحال دليل قاطع بصدقه''[١].

وكان مَن سبق السخاوي من العلماء يَعُدُّون الإخبار بالْمُغَيَّبِ أحدَ وجوه الإعجاز، قال الخطابي (ت: ٣٨٨هـ): ''ولا يُشَكُّ في أن هذا وما أشبهه من أخباره نوع من أنواع إعجازه، ولكنه ليس بالأمر العام الموجود في كل سورة من سور القرآن''[٢].

وجعل القاضي الباقلاني (ت: ٤٠٣هـ) وجوه الإعجاز ثلاثة فقال: ''ذكر أصحابنا وغيرهم في ذلك ثلاثة أوجه من الإعجاز: أحدها: يتضمن الإخبار عن الغيوب، وذلك مما لا يقدر عليه البشر، ولاسبيل لهم إليه. والوجه الثاني: أنه كان معلوماً من حال النبي أنه كان أُمِّياً لا يكتبُ ولا يُحْسنُ أن يقرأ... ثم أتى بِجُمَلِ ما وقع وحدث من عظيمات الأمور، ومهمات السير، من حين خلق الله آدم عليه السلام، إلى حين مبعثه. والوجه الثالث: أنه بديع النظم، عجيب التأليف، مُتَنَاهٍ في البلاغة إلى الحد الذي يُعْلَمُ عجز الخلق عنه''[٣].

وواضح أن السخاوي جمع الوجهين الأولين في وجه واحد سماه الإخبار عن الْمُغَيَّبِ، جمع فيه ما يتعلق بالماضي والمستقبل، ولم يعدُّه من وجوه الإعجاز، الذي قصره على الوجه الثالث على نحو ما تقدَّم.

---

١ جمال القراء ١/٤٤.

٢ بيان إعجاز القرآن ص٢٣، وينظر: الرماني: النكث ص١٠٩.

٣ إعجاز القرآن ص٣٣-٣٥.

٢. إقامة الدلائل والبراهين:

ذكر علم الدين السخاوي أن ما في القرآن من ذكر أسرار خلق السماوات والأرض وما فيهما من الآيات الدالة على التوحيد ليس من باب الإعجاز، ولكنها أدلة على صدق النبيِّ وما قاله السخاوي في هذا المجال هو ما صار يعرف اليوم بالإعجاز العلمي بعد أن تشعبت مباحثه وتعمقت معانيه.

قال السخاوي في ذلك: "فإن قيل: فهل في إقامته البراهين، وإيراد الدلائل على الوحدانية بذكر السماوات والأرض وتصريف الرياح والسحاب، وبأنه لو كان فيهما إلهٌ آخر لفسدتا، وعلى البعث بإنزال الماء وإحياء الأرض بعد موتها وبالنشأة الأولى، إلى غير ذلك – إعجازٌ؟

قلت: الإعجاز من جهة إيراد هذه الحجج في الأساليب العجيبة والبلاغة الفائقة، فهو راجع إلى ما قدمناه من نظم القرآن وإعجازه، وأما كونها براهين قاطعة فهو دليل على صدق النبي لأنه لم يكن من أهل هذا ولا قومه، ولا يعرف شيئاً منه"[١].

إن تقسيم وجوه إعجاز القرآن على قسمين، الأول ما وقع به التحدي، وهو ما في أسلوبه من النظم العجيب الخارج عن أساليب كلامهم، والثاني: إقامة البراهين وإيراد الدلائل على الوحدانية بذكر أسرار الخلق التي لم تكن معروفة للناس في ذلك الزمن، أمر جديد في مجال دراسة إعجاز القرآن، ولم أقف على من تقدَّم السخاوي إلى مثله.

وذهب بعض الدارسين المحدثين إلى ما ذهب إليه علم الدين السخاوي في تقسيم وجوه الإعجاز إلى ما وقع به التحدي، وما هو دليل على صدق النبي وسوف نناقش هذه الفكرة بعد أن نعرض وجهة نظر الدارسين المحدثين حولها، في المبحث الثالث.

١ جمال القراء ٤٧/١.

المبحث الثالث

ملامح فكرة السخاوي حول ما يسمى بالإعجاز العلمي عند المحدثين

أصبح موضوع الإعجاز العلمي اليوم حقيقةً واقعةً، وهو يحقق كل يوم جديداً، بتقدم العلم البشري، بازدياد أبحاث العلماء المسلمين في الآيات الكونية والعلمية في القرآن الكريم، على الرغم من استمرار النقاش حول ضوابطه وحدوده[1].

وكان من بين الأفكار التي تَطَرَّق لها النقاش عند المحدثين التمييز بين ما وقع فيه التحدي للعرب وقت نزول القرآن، وما تضمنه القرآن من أخبار التاريخ وأسرار الخلق الدالة على أن القرآن لا يمكن أن يكون من تأليف بشر، وفي ذلك دلالة على صدق النبي في ما بَلَّغَ عن ربه عز وجل.

وكان أول من تنبه من المعاصرين إلى التمييز بين وجوه الإعجاز على ذلك النحو الأستاذ محمود محمد شاكر في تقديمه لكتاب (الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي)، معلقاً على ما قاله مؤلف الكتاب من أنه "لا يوجد مسلم – وبخاصة في البلاد غير العربية – يمكنه أن يقارن موضوعياً بين آية قرآنية، وفقرة موزونة أو مقفاة من أدب العصر الجاهلي، فمنذ زمن طويل لم نعد نملك في أذواقنا عبقرية اللغة العربية، ليمكننا أن نستنبط من مقارنةٍ أدبيةٍ نتيجةً عادلةً حكيمةً"[2].

ثم قال مؤلف الكتاب: ''وهذا يعني أن الإعجاز كما أدركته العرب وقت النزول أصبح من اختصاص طائفة قليلة من المسلمين، بيدها وسائل التذوق العلمي... وهنا تواجهنا مشكلة (الإعجاز) في صورتها الجديدة بالنسبة لهذا المسلم، أعني بالنسبة لأغلبية المسلمين المثقفين ثقافة أجنبية، بل ربما بالنسبة لذوي الثقافة التقليدية، في ظروفهم الثقافية والنفسية الخاصة، فلا بد إذن من إعادة النظر في القضية في نطاق الظروف الجديدة التي يمر بها المسلم اليوم، مع الضرورات التي يواجهها في مجال العقيدة والروح''[3].

ولَمَّا كان إعجاز القرآن صفة ملازمة له عبر العصور والأجيال فلابد إذن من أن يتناوله المسلم المعاصر في صورة أخرى، وبوسائل أخرى، ''فهو يتناول الآية من حيث تركيبها النفسي الموضوع، أكثر مما يتناولها من ناحية العبارة، فيُطَبِّقُ في

---

[1] ينظر: مساعد بن سليمان الطيار: الإعجاز العلمي إلى أين؟ ، الرياض ١٤٣١هـ = ٢٠١٠م.

[2] الظاهرية القرآنية ص٥٨-٥٩.

[3] الظاهرة القرآنية ص٦٤-٦٥.

دراسة مضمونها طرق التحليل الباطن، كما حاولنا أن نطبقها في هذا الكتاب"[1].

تلكم هي القضية التي لفتت نظر الأستاذ محمود محمد شاكر وكتب في مناقشتها فكرته عن إعجاز القرآن، والتي لخصها بقوله: "ولا مناص لمتكم في إعجاز القرآن من أن يتبين حقيقتين عظيمتين قبل النظر في هذه المسألة، وأن يفصل بينهما فصلاً ظاهراً لا يلتبس، وأن يُمَيِّزَ أوضح التمييز بين الوجوه المشتركة التي تكون بينهما:

أولاهما: أن إعجاز القرآن كما يَدُلُّ عليه لفظه وتاريخه، وهو دليل النبي على صدق نبوته، وعلى أنه رسول من الله يُوحَى إليه هذا القرآن، وأن النبي كان يعرف إعجاز القرآن من الوجه الذي عرفه منه سائر مَن آمن به من قومه العرب، وأن التحدِّي الذي تضمنته آيات التحدي... إنما هو تحدٍّ بلفظ القرآن ونظمه وبيانه، لا بشيء خارج عن ذلك، فما هو بتحدٍّ بالإخبار بالغيب المكنون، ولا بالغيب الذي يأتي تصديقه بَعْدَ دَهْرٍ من تنزيله، ولا بعلم ما لا يدركه علم المخاطبين به من العرب، ولا بشيء من المعاني مما لا يتصل بالنَظم والبيان.

ثانيهما: أن إثبات دليل النبوة، وتصديق دليل الوحي، وأن القرآن تنزيل من عند الله، كما نزلت التوراة والإنجيل والزبور وغيرها من كتب الله سبحانه، لا يكون منها شيء يدل على أن القرآن معجز"[2].

وانتهى الأستاذ محمود محمد شاكر إلى التأكيد على هاتين الحقيقتين:

الأولى: أن الإعجاز كائن في رصف القرآن وبيانه ونظمه، ومباينة خصائصه للمعهود من خصائص كل نظم وبيان في لغة العرب، ثم في سائر لغات البشر، ثم في بيان الثقلين جميعاً إنسهم وجنِّهم متظاهِرين.

الثانية: أن ما في القرآن من مكنون الغيب، ومن دقائق التشريع، ومن عجائب آيات الله في خلقه، كل ذلك بمعزل عن هذا التحدي المفضي إلى الإعجاز، وإن كان ما فيه من ذلك كله يُعَدُّ دليلاً على أنه من عند الله تعالى"[3].

إن ما قاله محمود محمد شاكر يؤكد الفكرة التي أسسها عَلَم الدين السخاوي ويُوَضِّحُهَا، ولكن إذا كانت الظروف في عصر علم الدين بما فيها من قوة ملكة

---

١ المصدر نفسه ص٧١.

٢ الظاهرة القرآنية ص١٧-١٨.

٣ الظاهرة القرآنية ص٢٤-٢٥، وينظر: فضل حسن عباس: إعجاز القرآن ص٢٥٣.

اللغة وضآلة المكتشفات العلمية تُسَوِّغُ إخراج البراهين والدلائل على صدق النبوة من دائرة إعجاز القرآن، فإن الظروف في عصرنا تدعو إلى أن يكون لها مكانها في دائرة الإعجاز القرآني الواسعة.

ويمكن مناقشة هذه الفكرة من جهتين[1]:

الجهة الأولى: أن المقصود من التحدي إثبات أن القرآن من عند الله، وأن سيدنا محمداً هو رسول الله، فإذا كانت الحقائق العلمية وغيرها تدل على هذا، فذلك هو الإعجاز بعينه، ولا داعي لإخراجها من دائرته.

الجهة الثانية: كما أن القرآن كان خطاباً للعرب في زمن نزوله، فهو خطاب للعرب وغيرهم من الناس جميعاً، في جميع الأزمان، وكما وقع التحدي للعرب في زمن نزوله فإنه عامٌّ للناس جميعاً، ولا يُعْقَلُ أن يَتَحَدَّى الناسَ بالأسلوب وحده، في جميع الأزمنة، وفي حديث القرآن عن حقائق الكون والتاريخ والتشريع أبين الأدلة على إعجازه، ما دمنا نتفق على أن إعجاز القرآن ليس محدوداً بعصر أو زمان من الأزمان، أو خاصّاً بمصر أو بلد من البلدان.

ولَمَّا كان القرآن فيه الشريعة الباقية الخالدة، وهو يخاطب الأجيال كلها، والأجناس كلها، من العرب والعجم، والأبيض والأسود، والأحمر والأصفر، فليس ما فيه من الإعجاز خاصّاً بالعرب، وإنما صار إعجازه يَعُمُّ الجنس البشري كله، لأنه يخاطب الجميع، ويطالب الناس قاطبة بأحكامه، وعلى ذلك جاء فيه من وجوه الإعجاز ما يناسب كل جنس ويتوافق مع كل زمان، ويدعو ذلك إلى تقسيم وجوه الإعجاز التي اشتمل عليها على قسمين[2]:

الأول: ما يتعلق بالمنهاج البياني، وهذا النوع من الإعجاز أول من يخاطب به العرب، لأنه جاء بلغتهم، وهم أقدر من غيرهم على إدراك ما فيه من عجيب النظم وروعة الأساليب، لا سيما في عصر التنزيل.

والثاني: الإعجاز بما اشتمل عليه من ذِكْرٍ لأخبار السابقين، وذكر لأخبارٍ عن أمور مستقبلة، وقعت كما ذَكَرَ، واشتماله عَلَى علوم كونية وحقائق لم تكن معروفة في عصر النبي وقد أتى بها القرآن، وتقررت حقائقها من بعد، وإن هذا النوع معجزة الأجيال كلها، في كل زمان ومكان.

---

١ ينظر: فضل حسن عباس: إعجاز القرآن الكريم ص٢٦٧.

٢ ينظر: محمد أبو زهرة: المعجزة الكبرى ص٩٢.

وخلاصة القول هي أن فكرة علم الدين السخاوي في تقسيم وجوه الإعجاز على قسمين فكرة صحيحة في حد ذاتها، من ناحية ما وقع به التحدي في أول عصر الدعوة، وزمن البعثة النبوية، ولكن إذا كان التحدي القصد منه إثبات أن هذا القرآن من عند الله تعالى، فإن ما في القرآن من البراهين والدلائل على عجائب الخلق وأسرار الكون يدل أيضاً أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من تأليف بشر، وأنه من عند الله تعالى، فالنتيجة واحدة والمآل واحد، وينبغي أن تتسع دائرة الإعجاز لتضم هذه الوجوه جميعاً، لاسيما ما كان إدراكه في متناول أكثر الناس في هذا الزمان، وليس هناك ما يمنع من شمول مصطلح الإعجاز هذا الجانب من آيات القرآن الكريم.

إن العرب اليوم فَقَدَ أكثرهم الحسَّ اللغوي الذي تميز به أسلافهم، وإن التحدي بالقرآن الكريم للإنس والجن متظاهرين من أبناء مختلف اللغات، هو تحدٍّ مستمرٌ قائم إلى يوم الدين، مما يؤكد أن ما في القرآن من أمور الغيب، وحقائق التاريخ، ومن كشف مكنون النفس البشرية، وحسن الخطاب في هدايتها وإرشادها وتربيتها، ومن مختلَف الصور التي رُسِمَت أو ضُرِبَتْ لعجائب آيات الله في خلقه، ومن غير ذلك مما اكتشفه، ولا يزال يكتشفه في كتاب الله تعالى، متخصصون في كل حقل من حقول العلم والمعرفة، وإنْ تجاوز معارف العرب في زمن الوحي، لا يمكن أن يبقى بمعزل عن ذلك التحدي المفضي إلى الاعتراف بحقيقة الإعجاز القرآني، الدال على أن القرآن كلام الله تعالى[1].

خاتمة

كان إعجاز القرآن الكريم، والبحث في وجوهه، أحد الموضوعات التي شغلت العلماء منذ وقت مبكر، وقد كتبوا فيه رسائل مستقلة، وكان أكثر الذين بحثوا في وجوه الإعجاز من المتقدمين قد ذهبوا إلى أن إعجاز القرآن الكريم كائن في بلاغة أسلوبه، وما تضمنه من ذكر أخبار المغيَّبات، وما هو كائن في قديم الزمان، وما سيكون.

واستجد في العصر الحديث وجه جديد من وجوه إعجاز القرآن الكريم، وهو الإعجاز العلمي، الذي يقوم على استكشاف ما تضمنته الآيات الكريمة من إشارات علمية، قد أظهر التقدم العلمي دقة القرآن الكريم في التعبير عنها، وإن لم تكن

[1] ينظر: زغلول راغب النجار: قضية الإعجاز العلمي ص١٠.

تلك الإشارات مما وصلت إليه معارف الناس في عصر تنزيل القرآن الكريم، مما يدل على أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى، وليس من تأليف بشر، وأن النبي صلى عليه وسلم تلقاه عن الله عز وجل، وأنه مبلغ له عن ربه لهداية البشرية إلى الدين القويم.

وكان لعلم الدين السخاوي منهج متميز في الحديث عن إعجاز القرآن الكريم، يتلخص في التمييز بين الأسلوب البديع والنظم العجيب الذي جاء به القرآن، وعليه مدار إعجازه في نظره، وبين ما تضمنه القرآن من ذكر أخبار القرون الماضية والأمم الخالية ونحوها، مما لم يكن معروفاً للنبي صلى الله عليه وسلم، وما تضمنه القرآن من إقامة البراهين وإيراد الدلائل على الوحدانية بذكر السماوات والأرض وما فيهما من آيات، وجعله دليلاً على صدق النبي صلى الله عليه وسلم في ما بلغه عن ربه، ويرى إخراج هذا الجانب من دائرة الإعجاز.

وعرضتُ في هذا البحث وجهة نظر علم الدين السخاوي تلك، بعد تعريف موجز به وذكر أشهر مؤلفاته، ووازنت بينها وبين ما ذهب إليه عدد من الباحثين المحدثين من التمييز بين دلالة بلاغة القرآن الكريم وأسلوبه على الإعجاز، ودلالة ما تضمنه القرآن من المعاني الدالة على إثبات النبوة، وهو ما يلتقي مع ما قرره علم الدين السخاوي من قبل، ولكن إذا كان التحدي القصد منه إثبات أن هذا القرآن من عند الله تعالى، فإن ما في القرآن من البراهين والدلائل على عجائب الخلق وأسرار الكون يدل أيضاً أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من تأليف بشر، وأنه من عند الله تعالى، فالنتيجة واحدة والمآل واحد، وينبغي أن تتسع دائرة الإعجاز لتضم هذه الوجوه جميعاً، لاسيما ما كان إدراكه في متناول أكثر الناس في هذا الزمان، وليس هناك ما يمنع من شمول مصطلح الإعجاز هذا الجانب من آيات القرآن الكريم.

المصادر والمراجع

إبراز المعاني من حرز الأماني، أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل)، تحقيق إبراهيم عطوه عوض، دار الكتب العلمية، بيروت.

الإعجاز العلمي إلى أين؟ ، مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار (دكتور)، الرياض، ٢٠١٠م.

إعجاز القرآن الكريم، فضل حسن عباس (دكتور) وسناء فضل: دار الفرقان، عمان ١٩٩١م.

إعجاز القرآن، الباقلاني (أبو بكر محمد بن الطيب)، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر، ط٥، ١٩٨١م.

إنباه الرواة على أنباه النحاة، القفطي (علي بن يوسف)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة دار الكتب المصرية.

بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت.

بيان إعجاز القرآن، ضمن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) الخطابي (أبو سليمان حمد بن إبراهيم)، تحقيق محمد خلف الله، ودكتور محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، ط٢، ١٣٨٧هـ = ١٩٦٨م.

البيان في إعجاز القرآن، صلاح الدين عبد الفتاح الخالدي (دكتور)، دار عمار، عمان، ط٣، ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م.

تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان)، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٠٧هـ= ١٩٨٧م.

جمال القراء وكمال الإقراء، السخاوي (علم الدين علي بن محمد)، تحقيق د. علي حسين البواب مكتبة التراث، مكة ١٤٠٨هـ = ١٩٨٧م.

خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، البغدادي (عبد القادر بن عمر): تحقيق محمد نبيل طريفي وإميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٨م.

دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني (عبد القاهر بن عبد الرحمن)، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٨٤م.

الرسالة الشافية (ضمن ثلاث رسائل، ينظر: الخطابي)، عبد القاهر الجرجاني،

الروضتين في أخبار الدولتين: النورية والصلاحية، أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل)، تحقيق إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤١٨هـ = ١٩٩٧م.

سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٩، ١٤١٣هـ.

طبقات الحفاظ، السيوطي، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة وهبة، القاهرة ١٣٩٣هـ = ١٩٧٣م.

طبقات الشافعية الكبرى، السبكي (عبد الوهاب بن علي)، ط٢، تحقيق د. محمود الطناحي و د. عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م.

طبقات المفسرين، الداودي (محمد بن علي)، تحقيق علي محمد عمر، القاهرة ١٩٧٢م.

الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي: ترجمة عبد الصبور شاهين، تقديم محمود محمد شاكر، دار الفكر.

غاية النهاية في طبقات القراء، ابن الجزري (أبو الخير محمد بن محمد)، تحقيق برجستراسر، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٣٢م.

فتح الوصيد في شرح القصيد، السخاوي، تحقيق جمال الدين محمد شرف، دار الصحابة للتراث، طنطا ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م.

قضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم بين المؤيد والمعارض، زغلول راغب النجار: ط١، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، عمان ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٦م.

كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله)، إستانبول ١٩٤١م.

اللباب في تهذيب الأنساب، ابن الأثير (عز الدين علي بن محمد)، مكتبة المثنى، بغداد.

المعجزة الكبرى: القرآن، محمد أبو زهرة (الشيخ)، دار الفكر العربي — دار غريب للطباعة، القاهرة ١٩٧٠م.

معجم الأدباء، ياقوت الحموي (أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله)، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١١هـ = ١٩٩١م.

معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، الذهبي، تحقيق د. طيار آلتي قولاج، مركز البحوث الإسلامية، إستانبول ١٤١٦هـ = ١٩٩٥م.

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ابن تغري بروي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف)، وزارة الثقافة والإرشاد، مصر.

النكت في إعجاز القرآن، (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) الرماني (أبو الحسن علي بن عيسى)، ينظر: الخطابي.

هدية العارفين، البغدادي (إسماعيل باشا)، إستانبول ١٩٥١م.

الوافي بالوفيات، الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك)، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت ١٤٢٠هـ = ٢٠٠٠م.

الوسيلة إلى كشف العقيلة، السخاوي، تحقيق صالح مهدي عباس، رسالة ماجستير، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية ١٩٨٧م. وتحقيق د. مولاي محمد الإدريسي الطاهري، مكتبة الرشد، ط٣، الرياض ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م.

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان (أبو العباس أحمد بن محمد)، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.